

والإنذار هنا غير الإنذار الاول ، لقد كرّر الإنذار ليكون خاصاً بقيمة المعاصي ، إنذار للذين قالوا اتخذ الله ولداً ، أما الإنذار الاول فهو لمطلق الكفر والمعصية ، وأما الثاني فهو لإعادة الخاص مع العام ، كان لهؤلاء الذين نسبوا لله الولد عذاباً يتناسب ما وقعوا فيه من جرأة على الحق سبحانه وتعالى .

وقد أوضح القرآن فظاعة هذه المعصية في قوله : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَطَفَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) ﴿

[مریم]

إنها قمة المعاصي أن نخوض في ذات الله تعالى بمقولة تنفطر لها السماء ، وتنشق لها الأرض ، وتهتز لهولها الجبال .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا لَهُمْ بِهِمْ عِلْمٌ وَلَا إِلَٰهَ بِهِمْ كِبْرٌ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝ ﴾

فهذه القضية التي ادّعوها ، وهذه المقولة التي كذبوها على الله ، من أين أتوا بها ؟ الحقيقة أنهم ادّعَوْهَا ولا علم لهم بها ، والعلم إما ذاتي ، وإما ورثوه عن آياتهم وأجدادهم وهم لا يملكون شيئاً من هذا ويقولون بأمر لا واقع له : لذلك يقول تعالى : ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ .. ۝ ﴾

[الكهف]

(١) الإِد : الداهية والامر الفظيع والكذب الفاحش ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ (٨٩) [مریم] . أي : منكراً وكذباً فاحشاً . [القاموس القويم ١٢/١] .

وعدم العلم ينشأ من أمرين : إما أن الشيء موجود وأنت لا تعلم به ؛ لأنه مستور عنك ، وإما لأن الشيء لا وجود له أصلاً ، وأنت لا تعلم أنه غير موجود ؛ لأن غير الموجود لا يمكن أن يتعلق به علم .
 وقوله تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. ﴾ (٥) [الكهف]
 ﴿ كَبُرَتْ ﴾ أى : عَظُمَتْ وتناهت في الإثم ؛ لأنهم تناولوا مسألة فظيعة ، كَبُرَتْ أَنْ تَخْرُجَ هذه الكلمة من أفواههم .

﴿ كلمة ﴾ الكلمة قول مفرد ليس له نسبة كأن تقول : محمد أو ذهب أو فى ، فالاسم والفعل والحرف كل منها كلمة مستقلة ، والكلمة تُطْلَقُ ويُراد بها الكلام ، فالآية عبّرت عن قولهم ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ (٤) [الكهف] بأنها كلمة ، كما تقول : ألقى فلان كلمة . والواقع أنه ألقى خُطْبَةً .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. ﴾ (١٠٠) [المؤمنين] فسمّى قولهم هذا (كلمة) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَسْأَلُ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَرَاءَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ .. ﴾ (٩٤) [آل عمران] فسمّى كل هذا الكلام كلمة .

وقوله تعالى : ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. ﴾ (٥) [الكهف] أى : أن هذه الكلمة كَبُرَتْ لأنها خرجت منهم وقالوها فعلاً ، ولو أنهم كتبوها فى نفوسهم ولم يجهروا بها واستمعظموا أن تخرج منهم لكانوا فى عداد المؤمنين ، بدليل أن وفد اليمن حينما أتوا رسول الله ﷺ وقالوا : يا رسول الله تدور بأنفسنا أفكار عن الله ، فتعاضم أن نقولها - أى :

لا تقدر على النطق بها فقال ﷺ : « ذاك صريح الإيمان »^(١) .

إذن : المعيب عليهم أنهم أخرجوا هذه المسألة من أفواههم ، وهذا منتهى القبح ، فالأفكار والضوابط مهما بلغت من السوء وكتبتها صاحبها لا يترتب عليها شيء ، وكأنها لم تكن .

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا .. ﴾ [الكهف] أي : ما يقولون إلا كذباً ، والكذب ألا يطابق الكلام واقع الأمر ، فالعاقل قبل أن يتكلم يُدير الكلام على ذهنه ويُعرضه على تفكيره ، فتأتي النسبة في ذهنه وينطقها لسانه ، وهذه النسبة قبل أن يفكر فيها وينطق بها لها واقع .

فمثلاً حين نقول : محمد مجتهد . قبل أن تنطق بها جال في خاطرك اجتهد محمد ، وهذه تُسمى نسبة ذهنية ، فإن قلت : محمد مجتهد أصبحت نسبة كلامية ، فإن وُجد شخص اسمه محمد وهو مجتهد فعلاً ، فإن النسبة الذهنية الكلامية أصبحت نسبة واقعية ، والخبر بها خبر صادق . فإن كانت النسبة الكلامية لا واقع لها كان لا يوجد شخص اسمه محمد أو وُجد ولكنه غير مجتهد ، فالخبر هنا كاذب . وهذا هو الأسلوب الخبري الذي يحتمل الصدق أو الكذب .

وهناك الأسلوب الإنشائي الذي لا يحتمل الصدق ، ولا يحتمل الكذب : لأن النسبة الواقعية فيه متأخرة عن النسبة الكلامية كما لو قلت : ذاكر دروسك . فواقع هذه العبارة سيحدث في المستقبل ؛ لذلك لا يُوصف الإنشاء بالصدق أو بالكذب .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٢٢) كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي رواية : تلك محضر الإيمان ، قال النووي في شرحه لمسلم (٥١٢/١) : « إن استعمال هذا وشدة الوقوف منه ومن النطق به فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً مطلقاً وانتفتت عنه الريبة والشكوك » .

والتدقيق العلمي يقول : الصديق الحقيقي أن تطابق النسبة الكلامية الواقع والاعتقاد ، فإن اعتقدت شيئاً ولم يحدث ، فالنسبة كاذبة وأنت غير كاذب : لأن هناك فرقاً بين الخير والمخير .

وهذه المسألة واضحة في قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [١]

فقولهم : إنك لرسول الله نسبة صادقة : لأنها تطابق الواقع ، إنما هل وافقت معتقدهم ؟ لم توافق معتقدهم : لذلك شهد الله إنهم كاذبون : لأن كلامهم لم يوافق واقعهم الاعتقادي . أو : لأن التكذيب لم يرد به قولهم : إنك لرسول الله وإنما يراد به قولهم : نشهد ، فالتكذيب للشهادة لأن الشهادة أن يوافق القلب اللسان . وهم شهدوا بالسنتهم ، ولم تؤمن به قلوبهم .

وهنا لما قالوا ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ ، فهذه نسبة كلامية ليس لها واقع ، فهي نسبة كاذبة ، فقال تعالى : ﴿ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [٥]

ثم يسأل الحق سبحانه رسوله ﷺ ليخفف عنه ما يلاقي من متاعب وعناء وسقاه في سبيل الدعوة ، فيقول تعالى :

﴿ فَلَمَّا كَانَ بِأَخْبَعِ نَفْسِكَ عَلَى مَا نَرَاهُمْ إِن لَرَّيْمُونًا

بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا ﴾ [٦]

ومعنى : ﴿ بِأَخْبَعِ نَفْسِكَ .. ﴾ [٦] أي : تجهد نفسك في دعوة قومك إجهاداً يهلكها ، وفي الآية إشفاق على رسول الله ! لأنه

حَمَلَ نَفْسَهُ فِي سَبِيلِ هِدَايَةِ قَوْمِهِ مَا لَا يَحْمِلُهُ اللَّهُ وَيُلْزِمُ مَا لَا يُلْزِمُهُ ،
فَقَدْ كَانَ ﷺ يَدْعُو قَوْمَهُ فَيُعَرِّضُوا وَيَتَوَلَّوْا عَنْهُ فَيُشْثَعِ أَثَارُهُم بِالْأَسْفِ
وَالْحُزْنِ ، كَمَا يَسَافِرُ عَنْكَ حَبِيبٌ أَوْ عَزِيزٌ ، فَتُسِيرُ عَلَى أَثَرِهِ تَعْلُوكَ
مِرَاةَ الْأَسَى وَالْفِرَاقِ ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ لِحُبِّهِ لِقَوْمِهِ وَحِرْصِهِ عَلَى
هِدَايَتِهِمْ يَكَادُ يُهْلِكُ نَفْسَهُ (أَسْفًا) .

والأسف : الحزن العميق ، ومنه قَوْلُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :
﴿ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ .. ﴾ (٨٤) [يوسف] وقوله تعالى مِنْ مُوسَى لَمَّا
رَجِعَ إِلَى قَوْمِهِ غَاظِبًا مِنْ عِبَادَتِهِمُ الْعَجَلِ : ﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ
غَضَبًا أَسْفًا .. ﴾ (٨٦) [طه]

وقد حَدَّدَ اللَّهُ تَعَالَى مَهْمَةَ الرَّسُولِ وَفِي الْبَلَاغِ ، وَجَعَلَهُ بَشِيرًا
وَنَذِيرًا ، وَلَمْ يُكَلِّفْهُ مِنْ أَمْرِ الدَّعْوَةِ مَا لَا يُطِيقُ ، فَفِي الْآيَةِ مَظْهَرٌ مِنْ
مَظَاهِرِ رَحْمَةِ اللَّهِ بِرَسُولِهِ ﷺ ، فَيَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا
لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (٧)

وَكَانَ هَذِهِ الْآيَةُ تَعْقِيبَ عَلَى سَابِقَتِهَا ، وَإِشَارَةً لِرَسُولِ اللَّهِ بِأَنَّ
الدُّنْيَا قَصِيرَةٌ ، فَالْمَسْأَلَةُ - إِثْنٌ - قَرِيبَةٌ فَلَا دَاعِيَ لَأَنْ يُهْلِكَ نَفْسَهُ
حُزْنًا عَلَى عِنَادِ قَوْمِهِ ، فَالدُّنْيَا لِكُلِّ إِنْسَانٍ مَدَّةٌ بِقَلْبِهِ بِهَا وَعَيْشُهُ فِيهَا ،
وَلَا دُخْلَ لَهُ بِعَمَرِهَا الْحَقِيقِيِّ : لِأَنَّ حَيَاةَ غَيْرِهِ لَا تَعُودُ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ ،
وَعَلَى هَذَا فَمَا أَقْصَرَ الدُّنْيَا ، وَمَا أَسْرَعَ انْقِصَافُهَا ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَيْنَا
فَنَجَازِيهِمْ بِمَا عَمَلُوا ، فَلَا تَحَوُّنَ وَلَا تِيَّاسَ ، وَلَا تَكْدُرُ نَفْسُكَ ، لِأَنَّهُمْ
لَمْ يُؤْمِنُوا .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا .. ﴾ (٧) [الكهف]

أي : كل ما على الأرض هو زينة ، والزينة هي الزخرف الذي يجرق أمام الأعين قيفريها ، ثم يندثر ويتلاشى ، وقد أوضح لنا القرآن هذه المسألة في قوله تعالى :

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا^(١) تَلْرُوهُ الرِّيحُ .. ﴾ [الكهف]

فإياك أن ياخذك هذا الزخرف ؛ لأنه زهر سرعان ما يذبل ويصير حطاما .

وقوله : ﴿لِيَبْلُوَهُمْ .. ﴾ [٧] [الكهف] البلاء يعنى : الاختبار والامتحان . وليس المصيبة كما يظن البعض ؛ لأن المصيبة تكون على مَنْ يَخْفِقُ فى الاختبار ، والابتلاء لهم من الله مع علمه تعالى بامرهم وما سيحدث منهم مُسَبِّقاً ، ولكن لتعرف معرفة الواقع وشهادة الواقع .

وما أشبه هذه المسألة بالتلميذ الذى يتبأ له أستاذه بالفشل لما يراه من مقدمات يعرفها عن عقلية وعن اجتهاذه والتفاته يحكم من خلالها ، فإذا ما دخل التلميذ الاختبار فشل فيه وأخفق ، لكن هل يعنى هذا أن تُلغى الاختبارات فى مدارسنا اعتماداً على خبرة المعلم بتلاميذه ؟ لا بُدَّ من الاختبار ليقرم شاهداً واقعياً على مَنْ يَخْفِقُ .

إذن : معنى : ﴿لِيَبْلُوَهُمْ .. ﴾ [٧] [الكهف] أى : بلاء شهادة منهم على أنفسهم .

(١) الهشيم : المحطب أو الخشب المحطم . وقسم الشيء اليابس : كسره . وهضم الخبز : كسره وفقه . [القاموس اللويم : ٢٠٣/٢] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٥﴾

الصعيد : هو طبقة التراب التي تظهر على وجه الأرض ، ولا نبات فيها و ﴿ جُرُزًا ﴾ هي الأرض الخالية من النبات ، وقد يكون بها نبات ، إلا أن الجراد أكله أو جاءت جائحة أهلكته ، يقول تعالى : ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ۝٢٧﴾ [المائدة]

وما دام الأمر كذلك والنفيا زُخْرَفِ سرعان ما يزول ، فالأجل قريب ، فدعهم لي أختبرهم ، وأجازيهم بأعمالهم .

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾

وقد وردت قصة أهل الكهف نتيجة لسؤال كفار مكة الذين أرادوا أن يُخرجوا رسول الله ، ويُرَوِّى أنهم أرسلوا رجلين منهم هما : النضر ابن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أهل الكتاب في المدينة ليسألوهم عن صدق رسول الله ، وما خبره عندهم ، وما ورد عنه في كتبهم .

(١) لختلف الناس في الرقيم على أقوال كثيرة ، منها ما ذكره القرطبي في تفسيره :

- الرقيم : واد ، قاله مجاهد .
- الرقيم : الصخرة التي كانت على الكهف ، قاله السدي .
- الرقيم : كلبهم ، قاله أنس بن مالك والشعبي .
- الرقيم : لوح من الرصاص كتب فيه أسماؤهم وأسماءهم ورجلهم وممن هربوا ، قاله ابن عباس والبراء .

وهناك أقوال أخرى ذكرها القرطبي في تفسيره (٤٠٨٦/٥ - ٤٠٨٧) .

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

٨٨٤٣

وقد كان يهود المدينة قبل البعثة يتوعدون الأوس والخزرج عباد الأصنام ببيعة للنبي الجديد ، يقولون : لقد أطل زمان نبي فتبعه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم : لذلك رغب أهل مكة في سؤال يهود المدينة عن صدق رسول الله ، فلما ذهب الرجلان إلى يهود المدينة قالوا : إن أردتم معرفة صدق محمد فاسألوه عن ثلاثة أشياء ، فإن أجابكم فهو صادق . أسألوه : ما قصة القوم الذين ذهبوا في الدهر مذاهب عجبية ؟ وما قصة الرجل الطواف الذي طاف الأرض شرقاً وغرباً ؟ وما الروح ؟^(١)

وفعلوا ذهب الرجلان إلى رسول الله ، وسألاه هذه الأسئلة فقال ﷺ : « أخبركم بما سألتكم عنه غداً »^(٢) وجاء غد وبعد غد ومرت خمسة عشر يوماً دون أن يوحى لرسول الله شيء من أمر هذه الأسئلة ، فشق ذلك على رسول الله وكبر في نفسه أن يعطى وعداً ولا يتجزء .

وقالوا : إن سبب إبطاء الوحي على رسول الله في هذه المسألة أنه قال : « أخبركم بما سألتكم عنه غداً » ولم يقل : إن شاء الله : ولذلك خاطبه ربه تبارك وتعالى بقوله : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف]

وهذه الآية في حد ذاتها دليل على صدق رسول الله ، وعلى أدبه ، وعلى أمانته في البلاغ عن ربه عز وجل ، وقد أراد الحق

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (١٠٧١/٥) وعزله لاين إسحاق

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢٦٩/٢ - ٢٧١) . وكذا ابن هشام في السيرة

(٢٢٢ - ٢٢١/١) من حديث ابن عباس وهو من طريق ابن إسحاق .

سبحانه أن يكون هذا الدرس في ذات الرسول ليكون نموذجاً لغيره ،
وحتى لا يستتفك أحد إذا استدرك عليه شيء ، فها هو محمد رسول
الله يستدرك عليه ربه ويعُدُّ له .

فكان قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ خُذَا ﴾ (٢٣) إلا
أن يشاء الله .. ﴿ (٢٤) ﴾ [الكهف] تربية للأمة في شخصية رسولها حتى
لا يستتفك المربي من توجيه المربي ، ما دام الهدف هو الوصول
إلى الحقيقة ، فإياكم أن ترفضوا استدراك رأي على رأي حتى وإن
كان من الخلق ، فما بالك إن كان الاستدراك من الخالق سبحانه ،
والتعديل والتربية من ناحيته ؟

واليك مثال لأدب الاستدراك ومشروعية استئناف الحكم ، لقد
ورد هذا الدرس في قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي
الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ^(١) فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ (٧٨) [الأنبياء]
فكان حكم داود عليه السلام في هذه المسألة أن يأخذ صاحب
الزرع الغنم التي أكلت زرعه ، فلما بلغ سليمان هذه الحكومة استدرك
عليها قائلاً : بل يأخذ صاحب الزرع الغنم ينتفع بها ، ويأخذ صاحب
الغنم الزرع يصلحه حتى يعود إلى ما كان عليه ، ثم تعود الغنم إلى
صاحبها ، والزرع إلى صاحبه .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. ﴾ (٧٩) [الأنبياء]
ولم يتهم داود بالخطأ ، بل قال : ﴿ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. ﴾ (٧٩) [الأنبياء]
ونلاحظ هنا أن الاستدراك لم يأت من الأب للابن ، فيكون أمراً

(١) النَّفْثُ : أن تنتشر الأبل (والغنم) بالليل فتدعى من غير علم راعيها [لسان العرب -
مادة : نفث] . ونفثت الغنم : انتشرت في العرمي بغير راع ولا ضابط . [القاموس
القرئيم ٢٧٩/٢] .

طبيعياً ، بل جاء من الابن للاب ليؤكد على أنه لا غشاضة أن يستدرك الصغير على الكبير ، أو الابن على الأب ، فالهدف هو الوصول إلى الحق والصواب ، ونبي الله سليمان في هذه المسألة لم يفتن الطرف عن هذا القصور في حكمة أبيه ، بل جهر بالحق ونطق به ؛ لأن الحق أمر من أي صلة حتى لو كانت صلة الأبوة .

ومن هذه القضية نعلم أن استدراك الخلق على الخلق أمر طبيعي ومقبول لا يستنكف منه أحد . ومن هنا جاءت فكرة الاستئناف في المحاكم ، فلعن القاضي في محكمة الاستئناف يستدرك على زميله في المحكمة الابتدائية ، أو يقف على شيء لم يقف عليه ، أو يرى جانباً من القضية لم يره .

ولنا هنا وقفة مع أمثاله ﷺ في البلاغ عن الله ، وأنه لم يكتف من الوحي شيئاً حتى ما جاء في عتابه والاستدراك عليه ، فكانه أمين حتى على نفسه ، فالرسول هو الذي بلغنا : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴾ (٢٢) [الكهف] وهو الذي بلغنا : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. ﴾ (١) [التحریم]

وهو الذي بلغنا في شأن غزوة بدر : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ .. ﴾ (٤٢) [التوبة] وغيرها كثير من آيات القرآن ؛ لذلك مدحه ربه تعالى بقوله : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْقَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ (٢١) [التكوير]

حتى في مجال التهديد والوعيد لم يكتف رسول الله من الوحي حرفاً واحداً ، انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِيلِ ﴾ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) [المائدة]

إنها الامانة المطلقة والصدق الذي لا يخفى شيئاً .

ألم يكن جديراً بالقوم أن يفقهوا هذه الناحية من رسول الله ،
ويتفكروا في صدقه ﷺ حين يُخبرهم عن نفسه أشياء لم يعرفوها ،
وكان من المنتظر أن يُخفيها عنهم ؟ أليس في ذلك دليلاً قاطعاً على
صدقه فيما يقول ؟

والحق تبارك وتعالى حينما يعلمنا أن نقول : إن شاء الله إذا
أقدمنا على عمل في المستقبل إنما يُكرّم عبده ويحميه حتى لا يُوصَفَ
بالكذب إذا لم يُخلق ما وعد به ، وليس في قولنا : إن شاء الله حَجَرٌ
على أحد ، أو تقيد لطموحات البشر كما يدعى البعض أن قول إن
شاء الله يلغى التخطيط للمستقبل .

نقول : خَطَط كما تريد ، ونَجِّر من أمرك ما شئت ، واصنع من
المقدمات ما تراه مناسباً لإنجاح سعيك ، لكن ما عليك إن قرنتَ هذا
كلمة بمشيئة الله ، وهي في حَسْب ذاتها عَوْنٌ لك على ما تريد ، فإن
أخفقت فقد جعلت لنفسك حماية في مشيئة الله ، فأنت لغير كاذب ،
والحق تبارك وتعالى لم يشأ بعد أن تتجزأ ما تسعى إليه .

والحقيقة أن الحدث في المستقبل لا يملكه أحد ، ولا يضمته أحد
إلا الله تبارك وتعالى ؛ لذلك عليك أن تُعَلِّق الفعل على مشيئة الله ،
فإن قلتَ مثلاً : سأقابل فلاناً غداً لأكله في كذا ، فهل تملك أنت من
عناصر هذا الحدث شيئاً ؟

أضمنت أن تعيش إلى غد ؟ أضمنت حياة فلان هذا إلى الغد ؟
أضمنت أن موضوع المقابلة باقٍ لا يتغير فيه شيء ، ولا يطرأ عليه
طارئ ؟ إذن : فكيف تقطع بالقول أنك ستفعل غداً كذا ؟ قل : إن
شاء الله ، وأخرج من دائرة الحرج هذه .

سورة الكهف

٨٨٤٧

نعود إلى الآية التي نحن بصددنا فالحق سبحانه يقول : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ (٩) [الكهف]

﴿ أَمْ ﴾ حرف من حروف العطف ، ويفيد الإضراب عما قبله وترجيح الاهتمام إلى ما بعده ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْعَى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ نَسْعَى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ .. ﴾ (١١) [الزمر]

فالمعنى : إن سالك كفار مكة عن مسألة أصحاب الكهف على أنها معضلة يريدون إخراجك بها ، فدعك من كلامهم ، ودعك من سوء نيتهم ، ولا تحسب أن أهل الكهف هي العجيبة الوحيدة لدينا ، فالعجائب عندنا كثيرة ، وهذه واحدة منها .

و ﴿ الْكَهْفِ ﴾ : الفجوة في الجبل و (الرقيم) الشيء المرقوم أى : المكتوب عليه كحجر أو نصوه ، ولعله حجر كان على باب الكهف رُقم عليه أسماء هؤلاء الفتية ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ مُرْقُومٌ ﴾ (٩) [المطهرين] أى : مكتوب .

وقوله : ﴿ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ (٩) [الكهف] أى : ليست هذه هي العجيبة الوحيدة ، فكل آياتنا عجيبة تستحق التأمل .

ثم نأخذ الآيات في تفصيل هذه العجيبة ، فيقول تعالى :

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ

رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (١٠)

(أوى) من المأوى ، وهو المكان الذى يأوى إليه الإنسان ويلجأ إليه (الفتية) جمع فتى ، وهو الشاب فى مقتبل العمر ، والشباب هم معقد الآمال فى حمل الأعباء والنهوض بكل أمر صعب .

وهؤلاء شباب مؤمن وقفوا راية عقيدتهم وإيمانهم أمام
جبروت الكفر وطفيان الشرك ، فالتقاء فيهم فناء إيمان وعقيدة .

لذلك لجأوا إلى الكهف مُخْلِفين وراءهم أموالهم وأهلهم وكل
ما يملكون ، وفروا بدينهم إلى هذا المكان الضيق الخالي من أي مَقُومٍ
من مَقُومات الحياة ؛ لأنهم لا يشغلون أنفسهم بهذه المَقُومات ، بل
يعلمون أن لهم رباً سيتولى أمرهم ؛ لذلك ضَرَعُوا إليه قائلين :

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۖ ۝ (١٠) ﴾ [الكهف] أي : رحمة من عندك ،
أنت ترحم بها ما نحن فيه من انقطاع عن كل مَقُومات الحياة ،
فالرحمة في فجوة الجبل لن تكون من البشر ، الرحمة هنا لا تكون
إلا من الله : ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ (١١) ﴾ [الكهف] أي : يَسِّرْ لَنَا
طريقاً سديداً للخير وللحق .

إن هؤلاء الفتية المؤمنين حينما ألجأهم الكفر إلى ضيق
الكهف تضرَّعوا واتجهوا إلى ربهم ، فهو وحده القادر على أن
يُوسِّعَ عليهم هذا الضيق ، كما قال تعالى : ﴿ قُلُوا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا
نَضْرَعُوا ۖ ۝ (١٢) ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَضَرَعْنَا عَلَيْهِمْ أَذَانَهُمْ فِي الْكَهْفِ ۖ

سِينِينَ عَدَدًا ۝ (١١) ﴾

يُقَالُ : ضَرَبَ القسطاط على الأرض يعني الخيمة ، أي : غَطَّيْتُ
الأرض بها بعد أن كانت فضاءً ، والضرب : أن تلمس شيئاً بشيء
بشدة شريطة أن يكون المضروب به أقوى من المضروب ، وإلا كان
الضارب ضارباً لنفسه .

لذلك ، فالشاعر عندما تكلم عن المعترضين على القدر قال :

أَيَا هَازِلًا مِنْ صُتُوفِ الْقَدَرِ بِنَفْسِكَ تُعَنَفُ لَا بِالْقَدَرِ
وَيَا ضَارِبًا صَخْرَةً بِالْعَصَا ضَرَبْتَ الْعَصَا أَمْ ضَرَبْتَ الْحَجَرَ ؟

فمعنى ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ .. ﴾ (١١) [الكهف] أى : غطيناها بغطاء محكم يحجبهم عن العالم الخارجى ، والضرب على آذانهم هو الرحمة التى دعوا الله بها وطلبوها : لأن الإنسان الذى يحمل الفأس مثلاً ويعمل بها إن تعب وأجهد العمل يقف بعض الوقت ليسترخ ، فإن تعب من الوقوف فعد ، فإن تعب من القعود استلقى واضطجع ، فإن لم يسترح فلا يبقى إلا أن ينام ، ففى النوم تهدأ الأعصاب ، ويسترخ الإنسان ، حتى مع الآلام فى أعنف الأمراض إذا نام المريض لا يشعر بشيء من الألم ؛ لذلك اختار لهم ربهم هذا الوضع ليريحهم به طوال فترة مكثهم فى الكهف .

فالحق سبحانه - إذن - هو الضارب ، والمضروب هو الأذان ، والضرب على الأذان هنا للرحمة لا للعذاب ؛ لأن الله تعالى أراد لهم أقصى درجات الراحة والنوم الهادئ الذى لا يُعَكِّرُ صَفْوَهُ شَيْءٌ ، والنوم هو الراحة التامة التى تطفى على الآلام العضوية فى الذات الإنسانية .

وقد اختار الحق سبحانه الضرب على آذانهم ؛ لأن حاسة السمع هى أول الحواس عملاً فى الإنسان ، وهى أول آلة إسماع تؤدى مهمتها فى الطفل ، كما قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨) [النحل]